المحاضرة الثالثة

الفكر الجزائري في العصر القديم

لوكيوس أبوليوس نموذجا

عرفت الجزائر النشاط البشري منذ العصور الحجرية؛ حيث استوطنها الإنسان القديم، ولكن التاريخ المسجّل يبدأ من فترة النفوذ الفينيقي، حيث سيطر الفينيقيون على تجارة سواحل البحر المتوسط، وأسّسوا مدناً ساحلية جزائرية كوهران، وشرشال، وعنابة، وجيجل، وكانت العلاقات بين أهل الجزائر والفينيقيين سلميّة رغم الكراهية التي كنّها البربر للفينيقيين بسبب استغلال ثرواتهم. استطاع الرّومان دخول شمال إفريقيا من ناحية المغرب وبدؤوا في الاحتكاك بالفينيقيين، وأدّى الصراع الناشب بينهم إلى تحرّر الأمازيغ من النفوذ الفينيقي وتأسيس دولة مستقلة هي مملكة نوميديا، ودخل الملك مسينيسا في صراع ضدّ الفينيقيين للتحرر من سطوتهم بمساندة روما، إلا أنّ الرومان انقلبوا عليه فيما بعد واستطاعوا احتلال بلاد المغرب واستيطانها، ومع تدهور وضع الحكم الروماني استطاع الوندال الاستيلاء على الجزائر وبقية الشمال الإفريقي ومن بعدهم البيزنطيون، وعانى الجزائريون بشدّة من وطأة الحُكمين الوندالي والبيزنطي حتى الفتح الإسلامي على يد أبو المهاجر دينار.

في ظل هذه الحقبة من تاريخ الجزائر وقبل الفتح الإسلامي كانت هناك حركة فكرية وعلمية ولعل من أبرز الشخصيات الفكرية: يوبا الثاني، لوكيوس أبوليوس، دوناتوس، سان أوغستين.

من هو لوكيوس أبوليوس ؟

ولد لوكيوس أبوليوس في أوائل القرن الثاني في مدينة مداوروش بالجزائر قرب سوق هراس سنة 125م وتوفي حوالي 170 م قرب قرطاج ، نشأ في أسرة أرستقراطية، درس هذا الأديب الأمازيغي الأصل بقرطاج، حيث كانت هذه المدينة الإفريقية عاصمة فكرية وسياسية في آن معا، وقد تابع أبوليوس دراساته العليا في اليونان (أثينا) وإيطاليا وآسيا الصغرى، ولقد أعجب بالفلسفة السوفسطائية، والفلسفة الأفلاطونية المحدثة، والفلسفات ذات الطبيعة الصوفية الروحانية التي تضمن للمؤمنين حياة أبدية سعيدة.

مؤلفات لوكيوس أبوليوس:

1- كتاب "الدفاع أو السحر"، حيث يدافع عن نفسه بحرارة إثر اتهامه بالشعوذة ويكشف القناع عن إحساس حاد بقيمه الشخصية. كما أنه سيرة ذاتية تمد القارئ بمعلومات عن قناعات واعتقادات الكاتب آفولاي وموطنه أفريقيا خلال تلك الفترة. كل هذا يتم تحت قناع بلاغي من حيث التعبير يعرض فيه الكاتب للأنا الأمازيغية مقابل الآخر اللاتني-الإغريقي.

2- كتاب "الفلوريدات" ويمكن ترجمة هذا العنوان إلي اللغة العربية ب الورديات أو الزهريات ، وهي أنطولوجيا تضم مختارات من أعماله وندواته وخطبه. كما يجمع مناقشات شفهية في عدة مجالات. إنه بالأساس عبارة عن آراء كاتب مسافر باستمرار، بالمعنى المادي والمعنوي لكلمة السفر.

3- كتاب "التحول"، وهو رواية ساخرة سماها "الحمار الذهبي" حيث يحكي عن الحب والنفس والآلهة والجن وعادات الإمبراطورية الرومانية.

4- كتاب "حول إله سقراط"، يتطرق لعالم الأرواح والجن. شخصيات غريبة يقدمها الكاتب تجد مكانها في العالم الإلهي وعالم البشر. شخصيات من ثلاثة أنواع: أرواح داخل جسد، أرواح تحررت من الجسد وأرواح لم يسبق لها أن سكنت الجسد المادي. ورغم أن نص الكتاب يبحث عن الجوانب الروحية عند سقراط، إلا أنه دعوة صريحة للبحث عن الحكمة.

5- كتاب فلسفي حول مذهب أفلاطون يتعرض للأمور الأخلاقية والمادية. إنها قراءة مراوغة لمسألة الأخلاق عند أفلاطون.

6- كتاب يتعرض لعلم الفضاء وموضوع الدين. هنا يذهب آفولاي إلى تقديم فكرته التي تفيد بأن الله أصل الحياة.

رواية الحمار الذهبي:

إن رواية الحمار الذهبي ذات طابع ملحمي، حيث تعتمد على فكرة المسخ وتحويل الكائن البشري الى حيوانات أو أشياء على غرار الإبداعات اليونانية. إذ يتحول لوكيوس في هذه الرواية إلى حمار بسبب خطأ حبيبته فوتيس التي كان يحبها لوكيوس كثيرا حينما ناولته مادة دهنية هي ملك سيدتها بامفيلا زوجة ميلون التي تمارس السحر في غرفتها السرية، وبهذه المادة يتحول الكائن البشري إلى أنواع من الطيور والكائنات الخارقة . وعندما سمع لوكيوس الشاب أسرار سحر هذه المرأة دفعه فضوله إلى أن يأمر فوتيس بجلب دهن الساحرة ليجربه قصد التحول إلى طائر لينأى عن الناس ويهاجر حيال عالم المثل بعيدا عن عالم

الفساد والانحطاط البشري. بيد أن فوتيس جلبت له مادة دهنية سامة تحوّل الإنسان إلى حمار. وبعد مغامرات صعبة ذاق فيها لوكيوس أنواعا من العذاب والهلاك وتعرف عبرها على مكائد البشر وحيلهم يعود إلى حالته الآدمية الإنسانية بعد أن تدخلت الآلهة إيزيس لتجعله راهبا متعبدا وخادما وفيا لها.

و قضية المسخ قديمة إذ وجدت في الملاحم القديمة حيث كان الإنسان يتحول إلى قرد أو حيوان أو سمكة أو شجرة أو حجرة، ويستند هذا المسخ في القديم إلى طقوس وعقائد شعبية، ففي "أوديسية" هوميروس الشاعر اليوناني مسخ أصحاب "يوليوس" إلى خنازير. كما توجد في أشعار يونانية قديمة قصائد ومقطوعات موضوعها قصص المسخ التي ضاع منها الكثير.

ومن خصائص رواية الحمار الذهبي أنها رواية عجائبية غرائبية يتداخل فيها الواقع مع الخيال، والسحر مع العقل، والوعي واللاوعي. ويتبنى فيها الكاتب المنظور الذاتي والرؤية الداخلية وضمير المتكلم دون أن ننسى روعة الوصف وبراعة الأسلوب وتشغيل الخطابات الدينية والأدبية والفلسفية والصوفية والعجائبية والأسطورية.

كل ذلك في أسلوب يتراوح بين الديني والأسطوري والميتافيزيقي والخرافي، تغلفه نغمة حزينة يتزاوج فيها العنف بالسادية. يحدث كل ذلك والكاتب الكبير آفولاي الأمازيغي يبدع في استحضار الخيال المدهش والأسطورة ليروي لنا قصة امتنع حتى الآن النقّاد التوصل إلى الإمساك بجميع تفاصيلها وخيوطها، فهو ينتقد الوضع السياسي بروما مستحضرا كل ما يخالج الفرد من ثنائيات: الحب والكره، التضحية والخيانة، الوفاء والغدر، الفضيلة والرذيلة، الاحترام والتطاول، الدراما والكوميديا، الإيمان والتحرر... كما يجمع آفولاي في روايته بين شخصيات متناقضة أيضا: الغني والفقير، القرصان والفلاح، العسكري والتاجر، الغانية والمتعففة، الساحرة والمؤمنة.

والرواية قراءة انتقادية ساخرة للمجتمع الروماني على جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. وتتجاوز هذه القراءة "الوعي البشري، وتنقب داخل المخبأ وداخل اللاوعي، وينبغي قراءة الحمار الذهبي قراءة متأنية في سياق انهيار العقل واضمحلال المركزية الرومانية وتفككها بحيث لم تعد روما هي معبد الثقافة ولكنها انسحبت أو بدأت تفعل ذلك تاركة مكانها لمناطق أخرى مثل أثينا.

تبدو الرواية في رحلتها . على الرغم من تعدد أجزائها– نصا واقعيا ساخرا ينتقد العقل الظلامي ويسفه سلوكيات السحرة وأباطرة القضاء الروماني الذين اتهموا "لوكيوس" بالسحر والشعوذة، ومن هنا فالرواية إعلان لانهيار الإمبراطورية الرومانية وإفلاسها أخلاقيا.

رواية "الحمار الذهبي" رواية قديمة ارتبطت بالغيبيات والسحر، ورغم أنها تغرق في الغيبيات وتبتعد عن العقلانية، إلا أن وصف الكاتب لحياته كحمار كان إبداعا يذكرنا اليوم برواية النمساوي "فرانز كافكا" الذي اعتمد تقنية المسخ إذ يتحول بطله في إحدى رواياته التي تحمل نفس العنوان التحول إلى صرصار. لكن الفارق طبعا، وإن لم يكن إبداعيا، لأن الروايتين في قمة الإبداع، الفارق هو أن لوكيوس أبوليوس الأمازيغي سبق كافكا النمساوي بما يقارب ألفي سنة.

رواية الحمار الذهبي ذات طابع ملحمي، حيث تعتمد على فكرة المسخ وتحويل الكائن البشري الى حيوانات أو أشياء على غرار الإبداعات اليونانية. إذ يتحول لوكسيوس في هذه الرواية إلى حمار بسبب خطأ حبيبته فوتيس التي كان يحبها لوكيوس كثيرا حينما ناولته مادة دهنية هي ملك سيدتها بامفيلا زوجة ميلون التي تمارس السحر في غرفتها السرية، وبهذه المادة يتحول الكائن البشري إلى أنواع من الطيور والكائنات الخارقة، وعندما سمع لوكيوس الشاب أسرار سحر هذه المرأة دفعه تطفله وفضوله إلى أن يأمر فوتيس بجلب دهن الساحرة ليجربه قصد التحول إلى طائر لينأى عن الناس ويهاجر إلى عالم المثل بعيدا عن عالم الفساد والانحطاط البشري. بيد أن فوتيس جلبت له مادة دهنية سامة تحوّل الإنسان إلى حمار. وبعد مغامرات صعبة ذاق فيها لوكيوس أنواعا من العذاب والهلاك وتعرف عبرها مكائد البشر وحيلهم يعود إلى حالته الآدمية الإنسانية بعد أن تدخلت الآلهة إيزيس لتجعله راهبا متعبدا وخادما وفيا لها.

ورواية الحمار الذهبي باعتباره نصا سرديا خارقا، يتضمن خمس لحظات فنية وجمالية تكوّن ما يسمى بالحبكة السردية للرواية:

1 ـ لحظة البداية المتوازنة: في هذه الفترة يعيش البطل – الراوي – حياة متوازنة، من سماتها الاستقرار والتعقل بالرغم من الصعوبات المحيطة به، وهكذا لم يكن هناك ما يعكر صفو لوكيوس مع حبيبته فوتيس بالرغم من عصابة مدينة هوباتا التي يتلذذ لصوصها بقتل من يمر عليهم وسلب ممتلكاتهم وثرواتهم النفيسة.

2 ـ لحظة التوتر الدرامي: رغبة في معرفة أسرار السحر، والتطفل على عالم الساحرة بامفيلا زوجة ميلون، وتحقيق الطموح الصوفي والمجد عبر التحول إلى طائر للتخلص من عالم البشر والارتقاء إلى عالم المثل، يتحول لوكيوس إلى حمار ذهبي عن طريق الخطأ، لأن عشيقته فوتيس ناولته دهنا ساما لا يحول الإنسان إلى طائر كما كانت تظن عندما سحبته من صندوق سيدتها، بل يحول الإنسان إلى حمار أثناء مسح الجسد بذلك العقار العجيب. وعندما حاول لوكيوس أن يطير مثل النسر، كان البطل قد تحول إلى حمار

3 ـ لحظة الصراع: تتمثل هذه اللحظة في صراع لوكسيوس مع الواقع المتعفن الذي لم يجد فيه سوى العذاب والضرب والاحتيال والمكائد والفساد. إنه العالم المملوء بالزيف والنفاق وتردي الإنسان.

4 ـ لحظة الحل: يتمثل حل الرواية في تحول لوكسيوس إلى إنسان بعد أن ساعدته إيزيس على ذلك.

5 ـ لحظة النهاية: تتمثل لحظة إعادة التوازن بعد أن عرف لوكيوس الحمار تجارب عديدة سواء أكانت مرة أم حلوة مع الرهبان السوريين والطحان والبستاني والجندي والأخويين الطاهيين إلى أن أنقذه من هذا المسخ الحيواني ذلك الكاهن المتعبد الذي حدثه عن قدرة الآلهة إيزيس، مما دفع لوكيوس إلى أن يناجيها أثناء حلم المنام كي تخلصه من هذه الورطة العويصة، ليتحول بعد ذلك إلى كينونته البشرية ويصبح خادما وفيا لمعبد الآلهة يخدمها بتفان وإخلاص، ومن ثم أصبح راهبا فكاهنا كبيرا بعد أن ترقى في مراقي العبادة واكتشف أسرار أوزيريس.

إن رواية "الحمار الذهبي" قراءة انتقادية ساخرة للمجتمع الروماني على جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. وتتجاوز هذه القراءة الوعي البشري، وتنقب داخل المخبأ وداخل اللاوعي، وينبغي قراءة الحمار الذهبي قراءة متأنية في سياق انهيار العقل واضمحلال المركزية الرومانية وتفككها بحيث لم تعد روما هي معبد الثقافة ولكنها انسحبت أو بدأت تفعل ذلك تاركة مكانها لمناطق أخرى مثل أثينا، تبدو الرواية نصا واقعيا ساخرا ينتقد العقل الظلامي ويسفه سلوكيات السحرة وأباطرة القضاء الروماني الذين اتهموا "لوكيوس" بالسحر والشعوذة، ومن هنا فالرواية إعلان لانهيار الإمبراطورية الرومانية وإفلاسها أخلاقيا.

ـ تأثير رواية "الحمار الذهبي" على الرواية الغربية والعربية:

لقد أثرت رواية "الحمار الذهبي" في كثير من الروايات الغربية ولاسيما المعاصرة منها، إذ أمدتها بفكرة المسخ التي تستند إلى العجائبية والأحداث الغريبة، وتداخل الأزمنة وجدلية الواقع والوهم واللامعقول. ومن أبرز الذين استفادوا من تقنية الأسطورة وفكرة المسخ نجد فرانز كافكا حيث تأثر هذا الأخير برواية لوكيوس أبوليوس على المستوى الغرائبي خاصة في روايته "التحول "، إذ تبدأ رواية كافكا بالعبارة التالية: "ذات صباح بعد الاستيقاظ من حلم مزعج فتح غريغوار عينه في سريره وقد تحول إلى حشرة"، وانعكس هذا الأمر على أسلوب الرواية العربية من خلال الاحتكاك بالآداب الغربية والاستفادة من التقنيات السردية في الرواية الحداثية الأوربية. ومن النصوص العجائبية العربية القديمة نجد "ألف ليلة وليلة"، وقصة "سيف بن ذي يزن"، وما كتبه الرحالة العرب وخاصة ما أورده ابن بطوطة من ظواهر عجائبية في كتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار".

استنتاج:

وخلاصة القول: إن رواية "الحمار الذهبي" سواء أكتبت باليونانية أم باللاتينية أم بتيفيناغ، فإنها إبداع عالمي يعبر عن هوية أمازيغية مغاربية نوميدية. وقد أثرت عجائبية هذه الرواية على الأدب القديم والرواية الغربية الحديثة والرواية العربية المعاصرة . ولا ننسى أن نقول كذلك بأن هذه الرواية من أقدم الروايات الأمازيغية التي تحسب على الأدب الأمازيغي لا على الأدب اللاتيني كما يذهب إلى ذلك إميل فاگيه في كتابه "مدخل إلى الأدب" الذي حاول أن يطمس أمازيغية هذه الرواية ذات الشهرة العالمية ليلصق عليها الهوية اللاتينية ليجرد الأمازيغيين من كل الفضائل الإيجابية ومهارات الابتكار والإبداع ولينسبها إلى اللاتينيين والرومان.